

ناصر قنديل



حديث الجمعة هذا الأسبوع من صباحات ميلاد إلى ليل حزينة وعتاب الصباح، إلى «قالت له» عن الحب والشفقة، وكلام في الرياضيات عن الرغبة والقدرة، وقضية الحديث المسألة الكردية في استعادة مقال كتبتُه من سنة وبضعة أشهر، عن ملف شائك حاضر من بوابة عين العرب على الأتراك، وعين الأتراك على الأكراد، فذكر إن تنفع الذكرى.

ما بين تهنة بعيد ميلاد حبيب وحزن ليل جديد

● يدخل الصباح إلينا من شبابيك العتمة ويدخل إليه من بوابات أحلامنا، فمن ينسى حلمه على الوسادة لا يعيش الصباح ويبقى ليله متصلًا. لهؤلاء خلقت نعمة النوم، ومن تصحو أحلامه في الليل لا يحتاج إلى الصباح، فله كتب تفسير الأحلام. وحدهم الذين يعيشون أحلامهم ويتشوقون لها مع رائحة البنّ وصوت فيروز يعرفون عدم التذمر من الاستيقاظ باكراً، ويعيشونه فرح ملاقات الضوء وتنتشي عقولهم لجمال التعرّض لضوء الصباح التي لا يشبهها في شيء ضوء باقي النهار. مثلهم مثل عقود كريمة تتلفح بشرته على الشعاع الأول وتخزن معه طاقة العيش لآلاف سنة كنبض معتق... لصباحاتكم خلق الضوء فدعوه يتسرّب إلى عتمة القلوب ويشق عن بعض أحزانكم لتنعوماً بابتسامة لا تفسر لها ولا سبب سوى ملاقات الأحلام بسعادة السعي إلى كآبة التحسّر والانتظار، واجعلوا الحلم بقياس قبضاتكم وتيقنوا مرات عدة من تناسب الاحجام قبل تثبيت الحلم... صباح الخير.

● قال الصباح لليل كل يوم أسلمك أمانة الناس، وهم في قمة النشاط، فترميمهم في بحر الكسل، حتى استرثم منك وأنا عائد من رحلتي، لتعيد الكرة كل مرة فأجابته الليل: أتسلم الناس منك حطاماً يتدمرون تعباً، فادواي تدمرهم بالنعاس، ومن ينهي رحلته معك بفرح يواصل رحلته معي بشغف، وهم أصناف. فهل تعلم أنه بمقياس فرح الحياة رواد الليل هم الفرحون، وبمقياس الشجاعة هم المرابطون على الثغور والساهاون، وبمقياس الكلمة هم الشعراء والصحافيون، وبمقياس التضحية هم الأطباء والمرضون والأطفاثيون، أما بقياس الشغف فهم العشاق والمغرومون. الفارق بيني وبينك أنّ غالبية زبائنك عندي ينامون، فيحل بدلاً من الضجيج السكون، وتذكر أنّ الذين ينتظرونك لتأتي هم من رواد الذين يسهرون الليل ويناجون أو يصلون أو يناوبون أو شعراً يكتبون. أتلي بمتعبك وأمنهم هدوء النوم وأبقي على خميرتك التي تستحق أن تلاقى كل يوم. أنا خادمك أيها الصباح وأرشيف روادك. فخلج الصباح واحمرّت وجنتاه، وقيل الليل على جبينه قبله صار اسمها «نجمة الصباح»، يلتقي العشاق والشعراء على مناجاتها، رفاق الليل ورواد الصباح، ويرتقي الشهداء مدرجاتها على سهوة الخيل ويبدع السلاح... صباح لياليكم الجميلة جمال لا تدمر فيه.

● قال الصباح للوردة وهو يتنسم بعضاً من عطرها الفواح: أنا هنا أحياناً ببعض من عطرِك لكنني أبقي الرحيق لمواسم نحل قادمة لا تذبيلن من مداعبتها أوراك وأحرس نومك واستيقاظك، فلا تتركني السهومي مني يمر سائحة فيقطفك عابر سبيل. فتتنسم العطر أقصى ما يحق لك به البوح، وأحذري إغواء كوب الماء فعمر السعادة فيه قصير، ولا تغرّك المزهار وزينتها فهي قفص وسجن ينتهي بالذبول الباكر. فقالت الوردة: لكنني أريد أن أبقي زهرة وأخاف أن أيتع ثمراً، وتنتهي رحلة العطر. فقال لها الصباح: لا يبقى للورد عطره إلا في حديقة. فزه الليمون أغنى الزهر عطراً يحنني وتطبق أوراقه وتصير صفراء بعد حين من نزع عن الشجر في البستان، فلا نحل يزور ولا أنوف حوله

صباحات

تدور، جماد يصير وزينة عمرها قصير، ومتى عقد ثمراً، صار نعم الدواء ونعم الغذاء. فقالت: وهل تهجرني متى صرت ثمراً أيها الصباح؟ فقال: أزعك حتى تلوح الشمس ويلفحك الهواء وتعيشين أضعاف عمرك كزهرة وأنت تجمعين جمال اللون إلى جمال النضارة إلى ثراء ما تختزنين بدلاً من الرحيق في العصاره والبذار، سرعان ما تصير شجراً، لتكويني أنت سيرة الحياة التي لي فيها جمال الرقيق، فلما كنت برعماً كنت أعبر قريك ويوم تصيرين ثمراً ساواظ على العبور، لكنني لا أزرّك إذا ارتضيت قطفك ورداً وصرتي زينة القصور، فالقطف للثمر الناضج ومنه البذار، عندئذ لا تسأليني عن شمة العطر، فرقة الزهر غير رفقة الثمر، لكنهما معا رفقة العمر.

● الصباح صوت السكون العميق الذي يشبه ترجيع العصى في كهف يسكن قلب الوادي بين جبال شاهقة، وصوت الموج في مساحات البحر النائية وصغير هواء بنسماث رقيقة على أغصان تتألق بحمل الياسمين. حتى يأتي صوت «منجيرة»، فلاح وصياح ديك ورنحة رعيان البرية. هكذا كانت سفوفية الطبيعة التي أراها الخالق، حتى خلق الله فيروز فصار لفيروز ضوء الصباح وللصباح صوت فيروز... صباحكم فيروز وضوء الصباح.

● كلما جاء الصباح وجد أنّ هناك من استيقظ قبله وأقام له مراسم الاستقبال، فأطلق عطر الورد وأمسك حبر الصحف ومسح دمع الحزاني وشد من عزم العمال والباعة والفلاحين، ونفخ في قلوب الجند شجاعة وحماسة وفي مزامير العساك أنغاماً جميلة. فأراد التخفي ليراه ويكشف أمره ويقول له شكراً، ويتشارك معه رشفة القهوة الأولى. وبعد التحريات والتحقيقات، وشت له الوردة أنّ يتبع عامل النظافة فوجد الخباز يوقظه، فقرر في اليوم الثاني أن يتبع الخباز فوجد أنّه تعدّ له عدة الصباح ثم تمسح جبينه برفق ليشدّ عزمه ويبدأ النهار. فاستيقها في اليوم الذي يلي فاستمع إلى ثرثرة العشاق تحت شبك دارها تهتك سكون الليل عندها فتقوم لملاقة الصباح. فعاد في يوم آخر يسبق سهرة العشاق ليكتشف أنهم على وقع أقدام بائع الصحف وباعة الخضار والحليب يتلاقون. ولما تتبع الباعة وجد الحبر والخضرة والنضرة والحليب فاتبعه الاختيار بينها ليكشف سرّها، فأختار الحبر الذي سال على ورق وسأله الحكاية إن كان يعلم سرّاً. فقال الحبر: لو جئتني لقصصت لك الحكاية فأنا عندي كل الأسرار، وبسولتي يدونون كل شيء، فاستمع أيها الصباح. إنّ الشعراء والعشاق والجند والباعة والفعالة والعمال والفلاحون وكل رفقة دربك حتى الورد والياسمين، ثمة من يستيقظ قبلهم فيوقظ فيهم وهم نيام شوقاً للحياة، فيندمون اسمه ولو برؤوس شفاهم وينهضون، فهل سمعت اسماً بنبضات القلوب والشفاه؟ فقال الصباح لقد مرت في النبطية في جنوب لبنان فسمعتهم يقولون يا حيدر. فقال الحبر ها أنت قد وجدته كان متخفياً على السنة الأطفال يقاتلون محتلاً يغتصب التراب هناك، لكنهم عموماً يناجونه مرة يا علي وينادونه مرة يا مسيح ومرة يؤنثون النداء فيقولون يا «عدرا»، ومرات يتمنون يا حق، أو يستغيثون فيقولون بحق علي امنحنا يا

● رذاذ المطر الصباحي وسعة البرد الأولى على شرفة المنزل، وأنت تفرك عيناً وتفتح الأخرى، أمام الضوء المبهر الآتي بين غيمتين كما تفتح الجفنين. وانشرح الصدر على جرعة الهواء الطازج، ومضات ساحرة قبل فنجان القهوة، وكسر الصمت بصوت فيروز الملائي... أسير حافي القدمين لتحسّن برودة الأرض ورطوبتها، ولزوجة انزلاق الزمن نحو آلات العصر الجديد، الشاشة واللابتوب والهاتف الذكي، متصّفحات مختلفة الوظائف، فأمسك باللاشعور جريدتي الورقية وأشمّ رائحة الحبر، ليكتمل الصباح... لحظات كلّها تمرّ سريعة، حتى تقع العين على كلمات تسرق الانتباه، و جرع الكافيين المتلاحقة، وتشغيل الحسابات على شبكات التواصل، لتفقد الأصدقاء. خطوات تتسارع فقد تأخرت عليهم بالمنقول والمكتوب والمقروء، وهي صارت عادة بيني وبينهم، يجاسبونني إن تأخرت عنهم، بتهمة إفساد تسلسل برامج صباحاتهم، فقلعاً لطريق المحاكمة، وتكرار أعداد التأخر، أسرع المراحل في طقوس صباحي، ليستمرّ صباحكم بطقوسه من دون تعديل... وها أنا أمتشق أصابعي لأنقر الأحرف الأولى لتحية الصباح، وبدء مشوار النهار... ولصباحكم الندي... صباح الخير.

قالت له

قالت له: ما هو الفارق بين الحب والشفقة؟ فقال لها: طبيعة الثمن، فلا ندفع عمراً إلا لمن نحنا ثمناً لموقف، أو تعبيراً عن تعاطف. أما الشفقة فهي رفق بحلول سوء وتعاطف مع تلقّي الأسوأ. وغالباً، يستبدل من يحب الشفقة تعبيراً في حالتها الرغبة بعدم المجاهرة أو الإمعان في الكبرياء والمكابرة.



رياضيات في الكلام

.. عندما يكون من لا يرغب قادراً ومن يرغب غير قادر، يجب تبادل الأدوار إحدى نتيجتين: كارثة أو عبدة. إذا كان ثمن الإنجاز المادي ثمناً معنوياً وارتضيناها، وثمان الإنجاز المعنوي مادياً ورفضناها، كنّا أهل الجيوب. وإذا حدث العكس كنّا أهل العيوب، وإذا رفضنا البيع والشراء وجاء الإنجاز بالاستحقاق، فنحن أهل الطوب، لا ننجني ما لا ثمنه الكرامة ولا نشترى جاهاً بلا استقامة.

ذكر إن تنفع الذكرى

شمال العراق. لكن وطنية كردية مستقلة تنطلق من حسابات مصالح شعبها ممنوعة. ويرى السوريون الأكراد مثلاً أنهم سوريون أولاً وأنّ وطنهم يستحق التضحية، وأنهم واثقون من نيل حقوقهم وخصوصياتهم تحت راية دولتهم الموحدة كما هي حال الاتحاد الديمقراطي ولجان الحماية الشعبية الذين يقاتلون في عين العرب، هذا المقال قبل سنة وبضعة أشهر عن المسألة الكردية يتناول القضية بعين أرغب استعادة مشاهد راتها وسجلتها أمانكم.

المسألة الكردية مطروحة بقوة من خلال ما يجري في عين العرب، وكيف يتصرف الحكم في تركيا، وهو بقيادة «الإخوان المسلمين» الذين يفترض أنهم ليسوا بأجندة قومية عنصرية طورانية، بل برونزامة إسلامية لا تفرق بين كردي وتركي. وها نحن نرى كيف تترك كوباني لمصير محتوم هو الموت مضرّجة بدماها تحت أنظار العالم، لأن الحقيقة المرة هي وقوف العالم الغربي مع كيان كردي ينشق مع «إسرائيل»، كما هي حال نشوء كيان بقيادة البرزاني في

أكراد سورية 2013/7/21

● لنبدأ من حيث تجب البداية: هل في سورية مسألة كردية أم مسألة سوريين من أصول كردية، أم هم أكراد سوريون أو سوريون أكراد أو أكراد سوريين؟ إنثنين لا نستطيع القول نعم؛ وجود مسألة كردية أي وجود أرض هي جزء من كردستان صافية السكان وتاريخية التجذّر في بيئتها الثقافية والسياسية القومية المستقلة كما هي حال كردستان العراق وتركيا من جهة. وسوريون من أصل كردي، أي مواطنون تجذروا بوطينتهم السورية وذابوا في حضارتها العربية وما زالوا يحملون بعضاً من خصوصية ثقافية تتمثل بالتقاليد والعادات الخاصة واللغة القديمة والطقوس كما هي حال الكلدان والأشوريين والسريان وسواهم من ديانات أو ثقافات شكلت جزءاً من النسيج الحضاري للعربية. كما شكلت مكوناً عضوياً في الشخصية السورية. فهم ليسوا سوريين من أصول كردية طالما أنّ جزءاً لا يستهان به من المعنيين من الناس المنتمين لهذه الشريحة ينظر إلى تكوينه وهويته بطريقة مزدوجة تقارب نفسياً وسياسياً حال أختوتهم في العراق ولا ينظر إلى رابطته بهم كمرتبة ثانية بعد رابطة الوطنية السورية بل تتقدم عليها أحياناً أو تساويها.

● في حالة العراق وتركيا منزلتين، لكن من منطلق وجود مسألة كردية كهوية قومية تتطلع نحو كيانها الخاص ويحدّ أدنى صيغة فيدرالية تربطهم بمواطنيهم غير الأكراد في العراق أو تركيا من جهة، وبعضهم من جهة أخرى، أي أكراد العراق وتركيا معاً، حيث كردستان الجغرافية الطبيعية التاريخية، وحالهم خلافاً لتجمعات كردية نزلت بفعل قسوة الطبيعة وقسوة المعاملة نحو منخفضات وسهول وبادية، وسورية وإيران وبالتالي ثمة منزلة بين منزلتين أيضاً في حالة سورية وإيران، هي أكراد ينتمون لهوية ووطنهم السوري أو الإيراني فيصيرون سوريين أكراد، أو أكراداً سوريين بهوية مزدوجة ومثلها في حال إيران ولهم حقوق ثقافية أكيدة لحماية هويتهم وخصوصيتهم، ولهم حق الترابط بأصولهم في ولايتين كرديتين فيدراليتين في العراق وتركيا أو بدولة كردية مستقلة تشكل بلدهم الأصلي كما هي حال الأرمن السوريين مع أرمينيا، أو يصيرون أكراد سورية وإيران المخزيين بين الاندماج بهويتهم الوطنية فيصيرون أكراداً سوريين أو يصيرون على هويتهم كأكراد سورية يحملون هوية بلدهم الموحد لاحقاً بصيغة دولة جغرافيتها موزعة بين تركيا والعراق ويحملون هويتين في وقت واحد ويقبلون في سورية مواطنة سورية. وغالباً يتصرفون عندما يزورون الوطن الأم كمواطنين أكراد فيه كما هي حال بعض من الأرمن الذين حولوا الجنسية الأرمينية لأرمينيا وظلوا يحملون جنسية البلد الذي انتسبوا عبر الهجرة لهويته وخصوصاً هنا الحديث عن سورية.

● الحالان تعينان طالما يقيم الأكراد في سورية أنهم ليسوا أكراد سورية بل يصبحون كذلك في أربيل أو ديار بكر وهم في سورية يبقون طالما اختاروا جغرافيتها وسكنهم وعلمهم وتعليم أولادهم أكراداً سوريين أو سوريين أكراداً، بمفهوم الهوية الوطنية السورية والهوية الثقافية للقومية الكردية وحق ممارسة الشعور بالهويتين.

● الحكم الذاتي كما الفيدرالية كما الانفصال، حقوق أو صيغ تصلح في حالة واحدة هي حالة أكراد العراق أو تركيا وفقاً لتبديل الأحوال والظروف والمصالح وموازين القوى، لا تبعاً للحقوق وتغير التوصيف للجماعة الكردية فالأصل في الصيغ الثلاث أنها تمنح لأقلية قومية مستقلة في جغرافيتها التاريخية الموجودة ضمن حدود دولة كبرى قد يرغبون بالانفصال عنها أو بالبقاء ضمنها بصيغة فيدرالية أو صيغة حكم ذاتي، والخيار هنا ناجم إما عن ضعف أو غنى الموارد الذاتية للأقليم الذي تشغله الجماعة أو لقوة الدولة المركزية أو ضعفها، أو لتوازن العدد والمساحة في تشكيل ديموغرافيا الجماعة في الدولة الكبرى. لكن هذه الصيغة السياسية بأوجهها الثلاثة تتصل حصراً بالجماعة القومية المستقلة والمتواصلة في جغرافيتها التاريخية وهذه ليست حال الأكراد في سورية.

● اللغّة وبناء المدارس والخصوصية بالأعياد التقليدية وكونانية وتمثيل وزراي وتشكيل أحزاب سياسية وانتخاب مجالس إدارة البلديات والقرى ذات الغالبية الطاغية منهم، وتشكيل اتحادات بلدية لهذه المجالس لتسهيل التواصل وتبادل الخدمات والخبرات. لكن لا حكم ذاتي ولا فيدرالية ولا انفصال حكماً حتى عند قيام الدولة الكردية بين أكراد تركيا والعراق في الجغرافيا التاريخية لكردستان. فحالهم تبقى مع فارق التواصل الجغرافي بالدولة القومية الأم كحال الأرمن مع أرمينيا.

● السوريون الأكراد أو الأكراد السوريون ليسوا أكراد سورية إلا في أربيل وديار بكر أما في سورية فلا. وهذا يعني أنّ ما قامت به اللجان والجماعات الكردية من إعلان حكومة ليس تعبيراً عن حق أو سلوك مطابق للمنطق والعلم والتاريخ.

● في قلب الإشتباك الكبير والحرب التي يخوضها الحلف الدولي الإقليمي على سورية، أدّى الأكراد تجارب مختلفة منها ما كان استغلالاً لضعف الدولة المركزية وانشغالها بهوم الجبهات والحرب، لممارسة أشكال من التلون السياسي والعسكري والتذكي الأمني بين خيارَي المعارضة والدولة. لكن الجوهرى والأساسي بقي على رغم الإغراءات الخارجية وعلى رغم تشوُّش صورة التعامل التاريخي بينهم وبين دولتهم الوطنية السورية، ووجود صفحات مؤلمة فيها، أنهم لم يتحولوا إلى

● في المواجهة التي يخوضها السوريون الأكراد مع «جبهة النصرة» و«الجيش الحر»، يعبرون عن وطنية سورية. ولو رفّعوا شعار الحكومة المحلية فهذا مؤقت ويمكن التعايش معه باعتباره تقويضاً لمشروع حكومة المعارضة المسلحة وميليشياتها ومنازعة لها على الجغرافيا والناس والسيادة وخلق شعار يسمح بخوض هذه المواجهة بأعلى درجاتها.

● عندما تنتصر الدولة السورية على قوى الحرب الحقيقية، سيكون ممكناً التوصل إلى صيغة توافقية مع السوريين الأكراد لترجمة صيغ تحقق لهم الرضا وتحفظ الوحدة الوطنية للتراب السوري، والصيغة الواحدة للدولة السورية.

● لامبرز للقلق من الخطوة الكردية ولاداعي لتزجّ الدولة السورية قواها في مواجهة ليست هي المعنى بها حتى يحين أو أن آخر يكون ما تبقى من قوى الحرب قد تلاشى وتكون الدولة السورية الجديدة قادرة على الاتساع لكل مكوناتها واستردادهم.